الأخبار
al-akhbar
الأربعاء 2019-10-09 العدد 3876

فنون تشكيلية

كتاب قيّم جمع لوحاته الإيطالية **كنوز حسين ماضي المجهولة**

يبدو أنه شهر حسين ماضي في بيروت. بينما يستمر معرضه في «غاليري مارك هاشم» حتى 14 تشرين الأول (أكتوبر)، احتفت به أخيراً النسخة العاشرة من «بيروت آرت فير» بمعرض وكتاب مهمّ صدر بنسخات محدودة. المعرض والكتاب حملا توقيع القيّم والتشكيلي عبد القادري. وقد كشفا للمرة الأولى بعد نصف قرن فصلاً هاماً من تاريخ المعلّم اللبناني. فصل يعود إلى بداية وصوله إلى روما عام 1963

من دون عنوان (زيت على قماش ـ مرحلة روما)

من دون عنوان (زيت على كانفاس ـ 160 × 300 سنتم ـ 1969 / مرحلة روما)

نيكولا بولس

ما أنانة الزمن السحريّة؟ هي كتاب ومعرض يترجم الكتاب بالعياس الحقيقة. حقيقة تظهر للعلن للمرة الأولى بعد نصف قرن على أرض وطنه يكشف للجمهور فصلاً هاماً من تاريخ الفنان حسين ماضي (1938). يعود إلى بداية وصوله إلى روما عام 1963 للدراسة في أكاديمية الفنون الجميلة لغاية عام 1970. الكتاب الفنّي بنسخات محدودة (ومرقّمة)، يؤرّخ حقبة روما المخفية من تاريخ إنتاجه الفنّي. وقد ترافق الإصدار مع معرض نوعي وفريد، لمجموعة الأعمال المتحفّية هذه، عُرضت للمرة الأولى أمام الجمهور. كنز كان بحوزة مازن سويد للفنّي الشغوف بأعمال ماضي هكذا تم الاحتفاء بالمعلّم اللبناني في النسخة الأخيرة من «معرض بيروت للفن»، ضمن القسم المخصص للإضاءة على «لبنان الحداثة». كان المعرض واحداً من الأكثر دقة في التنسيق، وجودة في احترام الرائين تماماً كالكتاب للفنّي الذي يظهر كنز ماضي المخفي. وقد حمل التنسيق بكفّتيه ـ المعرض والكتاب ـ توقيع القيّم والتشكيلي اللبناني الشاب والمدير المشترك لدار «دونغولا»: عبد القادري. نقل الأخير كنز ماضي هذا إلى رؤية مختلفة كلياً عن المعتاد، واضعاً الأعمال في إطار استثنائي عبر رحلة في الزمن حملتنا معها من روما الحداثة إلى بيروت المعاصرة وحملت ماضي من ماضيه المدهش إلى صيغة معاصرة جداً. صاغها القادري من خطوط حسين ماضي.

صدر كتاب حسين ماضي الفني الخاص هذا تحت عنوان Unexpected Trove/ The Unseen Works 1964-1970 عن دار فريدة في لبنان. تهتم بنشر الكتب المحدودة النسخ. الدار أسستها سارة شلبي قبل عامين في بيروت بمبادرة عبد القادري وسكتيت على اسم المملكة الذهبية في السودان «دونغولا» تحمل شعار «مقاومة الطمس الثقافي». تشرح سارة شلبي، مشعار «دار دونغولا» بالتأكيد ليس سياسياً، إذ ليس لدينا أي برنامج ولا أي طموح سياسي. لكننا نعتبر أن الثقافة والفن كأي وسيلة تعبير ثانية هي من الأكثر إنسانية.

ثم إن التعبير والثقافة يجب أن يكون لديهما قدرة على إيصال الصوت. ومن الضروري أن نأخذ ما يستطيع الفنانون أن يعبّروا عنه في بلادنا ومنطقتنا ونحاول إيصاله إلى مكان ثان. نطمح أيضاً أن نستطيع التكلم بمواضيع غير مقبولة كثيراً في المجتمع، ولكننا لم نصل بعد إلى هذه النقطة. ما زلنا في خطواتنا الأولى. ويهمنا جداً أن نقف إلى جانب الفنانين والكتاب والشعراء. اليوم، وجودنا كدار يعبر عن تمسكنا بالورق والكتاب وكل هذه الأمور التي تتحول مع العالم الرقمي والشاشات ولهواتف الذكية وغيرها. فهذا ما نحن أن نفعله/ نترجمه.

تهتم «دار دونغولا» بخلق مساحة للتعاون بين الفنون البصرية وتحديداً وسائل الطباعة التقليدية أو المعروفة مثل الحفر على الزنك أو الطباعة الحريرية وكل تقنيات الطباعة حتى الرقمية والتصوير الفوتوغرافي.

يقول المدير المؤسس للدار عبد القادري لـ «الأخبار»: «نتعاون مع فنانين وكتّاب نهتم تحديداً بالفنانين من الشرق الأوسط، وهذا النوع من الفنون غير متداول كثيراً في عالمنا العربي. وهو معروف أكثر في أوروبا. أقسم هنا كتاب الفنان. نحاول أن نكرّس هذا النوع من الممارسات الفنية وتحديداً في بيروت التي لطالما عرفت كعاصمة للنشر والطباعة.

«دونغولا»: مقاومة الطمس الثقافي

من دون عنوان (زيت على قماش ـ مرحلة روما)

طبعاً يهمنا أن نعالج المواضيع المرتبطة بالواقع الاجتماعي والسياسي والحضاري للمنطقة. وكل سنة نركز على موضوع عبر اختيار مجموعة فنانين نعمل معهم. أصدرنا كثيرة كالتوسع ليشمل الشروع إقامة فنان ومعارض تتزامن مع إطلاق كل كتاب. وهذا ما أحاول فعله منذ أن أسسنا الدار. طبعاً فريقنا يتألف من مجموعة خبراء أو لأشخاص نتعاون معهم بأسماً. المدير الفني في هذه الدار، هو رضا عابديني. وهو بالأساس معنا في إنتاج الكتب والمشاريع التي ننجزها، خصوصاً كتب الفنانين».

وهنا تجدر الإشارة إلى أن كتاب ماضي يحوي جزئين، واحد بالعربية يتضمن الحوار الخاص الكاشف للتفاصيل الخفية، أجراه القادري مع ماضي. والثاني باللغة الإنكليزية يقع في نصّين لمارى طنب وريبيكا بروكتور. أما الرؤية العامة والإشراف، فكان لمدير الدار عبد القادري نفسه.

غلاف الكتاب الفني (طباعة حجرية)

«في أحد أحياء روما المكتظة القريبة من أكاديمية الفنون، يجلس فنّان شاب في مقهى «با ر العربي» كما كانت تحلو لروّاده من الفنانين تسميته. عند المغيب ينتظره وكما في كل يوم فنجان القهوة الإيطاليّة يمسك بكرّاس من أوراق بيضاء ويدير

> ذهب إلى التجريد والترميز كلّما تقدّم الوقت في روما

ظهره لجارية كبيرة تطالع الزائرين بخط إشكالاً مبهمة. خطوطاً منحنية وأخرى مستقيمة. مدّيّاً هامش الصفحة بملاحظات دقيقة. يعود إلى محترفه ليناظر لوحة نفّذها بالأمس على عجل. لمشهد طبيعي عند تخوم العاصمة الإيطاليّة الساحرة. يتذكّر اللحظة يبتسم ويقلب اللوحة في المحترف أسطحٌ بيضاء كثيرة في انتظاره، ينتقط واحداً منها ويباشر رسم عصافيره وشخوصه وربّما نفسه كلها لها الشكل نفسه. ربما هو نفسه العصفور، ورقة شجر الصفصاف الإيطاليّة أو ذلك الشيء القابع بين الشيء والعدم.

هكذا يستهلّ عبد القادري الكتاب والحوار الاستثنائي مع حسين ماضي عن مرحلة روما (1964-1970) المجهولة كلياً لدى الجمهور العريض. فتروي القصة بتفاصيلها، مرفقة بصور الأعمال وقصصها.

يدخلنا بسحره عبر آلة الزمن إلى روما في ستينيات القرن الماضي، نجول معه تماماً كما فعل بنا في المعرض. والأهم أنّ هذه الجدارية التي حُكي عنها في النص، أصبحت في بيروت اليوم. لكن مهلاً، ما قصّتها؟ ما قصّة المجموعة؟ كيف عادت إلى الوطن؟ من كان مقتنوها الأوائل في روما؟ وكيف رأتها عينا ماضي من جديد بعد نصف قرن؟

«لم أتوقع يوماً أن أعاود رؤية هذا الجزء من تاريخي الفني حاضراً مجدداً أمام عينيّ. هذه اللوحات أعادت لي الكثير من ذكريات فترة جميلة وحرجة في أن. قضيتها في روما. المجموعة برقتها تعني لي الكثير. كوّنت خلالها علاقة وطيدة مع الطبيعة. حيث كنت أحمل أدواتي معي أينما حللت. ما إن ألمح مشهداً طبيعياً يفتنني حتى أترجّل من السيارة وأقتنص روح المكان وجماله بلوحة صغيرة أشبه بمذكّرات بصرية لأماكن وأزمنة جديدة أعايش تفاصيلها وأتآلف مع تبدلاتها وألوانها» بحسب حسين ماضي في الحوار الخاص مع القادري، المخصص لهذا الكتاب الفني

«الشيء» الوحيد الذي اصطحبته معي إلى روما قبل أكثر من 30 عاماً، كان غربتي» يقول ماضي للقادري في كانون الأوّل (ديسمبر) عام 1963 حطّ ماضي الرحال في روما. انكبّ على الرسم. المناظر الطبيعية كانت الأساس. فيها تبسط منفسّ وبحث لوني الحاد. يشي بصراحة مباشرة بالغايات الخاصة بماضي الذي تعرف. فيها نفسه وبحث مهول على الجينة اللونية. لا تصدق العين «دهشتها قوّة المادة البصرية التي أمامها. ترى سباق تحوّل ريشة ماضي ولوناته وتآلفاته أمام عيوننا في مرحلة تقارب سبع سنوات فقط ليصل إلى ما نعرفه الآن تتحوّل المساحات تدريجاً إلى خطوط. والأشكال إلى لون موحّد. يذهب إلى التجريد والترميز كلما تقدّم الوقت في روما. والأعمال يقتنيها من يقتنيها في روما. أبرزهم طبيب وصاحب شركة أدوية يهدي ماضي المعلومة لعبد القادري. فحينها الأخير أيضاً إلى الكتاب: «هذه الأعمال اشتراها السيد جيرولامي صاحب شركة الأدوية الذي كان أيضاً مديراً لسلسلة فنادق. ومقتنياً وبائعاً نافع الصيت. كان مهتماً بهذه الأعمال كونه قادراً على تسويقها وبيعها. هذه اللوحات جزء صغير مما اشتراه مني في السنوات الست الأولى لي في روما».

والطبيب المقتني» «الطبيب هو فرانكو بيرغامي. كان صديقي المقرّب وطبيبي. اقتنى أعمالاً كثيرة لي (...) واستمرت صداقتنا لحين وفاته» يضيف ماضي في حديثه مع القادري.

رحل المقتنون الأوائل، وبقيت لوحات ماضي في مساقط رأسها، روما، مدّة نصف قرن. ثم بالمصادفة أو بالقدر (لمن يؤمن به)، وصلت إلى إبني المقتني اللبناني مازن سويد. يقول الأخير: «هذه المجموعة أتت كمصادفة تماماً كما يذهب طفل صغير وهو يحفر، وإذ به يكتشف كنزاً. هذا ما حصل معي. الفرحتي بها وددت أن يراها كل الناس، خاصة أنها لم تمرّ من قبل. وليس مثلها شيء لحسين ماضي. ما دعاني للاستغراب بداية ولكن طبعاً كلما عشت معها أكثر، كلما رأيت فيها حسين ماضي أكثر. وهذا بالضبط ما اتفاقه أيضاً عبد القادري، سواء بخيارات الألوان أم في تنسيق المعرض، أو في الرؤية الإخراجية للكتاب».

من بين الأعمال المستعادة (عبر مزاد علني) التي عُرضت ضمن «بيروت آرت فير» كانت الجدارية وهي حتى اليوم أكبر عمل رسمه حسين ماضي على الإطلاق بطول متر ومئتين ستنيمتراً وعرض ثلاثة أمتار وتسعين ستنيمتراً. أما القصة فيرويها ماضي: «كان مقهى «بار جميل» في روما منتقى لمجموعة كبيرة من الفنانين العرب وقريباً جداً من الأكاديمية. أذكر منهم صديقي الراحل ابراهيم مرزوق، والفنان العراقي خالد الرحال الذي أعتقد إنه من أهم الفنانين العراقيين. والفنان الليبي طاهر المغربي. مالئه البار رجل إيطالي وزوجته كانا محبّين للفنون (..) اتفق معي أن أحصل على فنجان قهوة مجاناً إذا رسمت العمل. لم يكن محفّزي الأوّل طبعاً فنجان القهوة بقدر ما شعرت بالسعادة أنهما اختاراني لتنفيذه، خصوصاً من منطلق موقع البار الثقافي كونه محطة للفنانين والأدباء وخصوصاً العرب كما ذكرت. هذه كانت المكافأة الحقيقية لي، وليس المردود المادي».

هي ببساطة مرحلة روما كما يعلنها إمضاء ماضي على خلفية الأعمال حينها، وكما يظهره غلاف الكتاب الفريد (بالطباعة الحريرية لكل نسخة). المدينة الخالدة التي غيّرت أقدار فنانين كثر، من بينهم حسين ماضي. يخلّص القادري في الكتاب: «في روما حيث عاش 22 عاماً من حياته أنتج الفنان حسين ماضي مئات اللوحات، فهو كما معروف عنه لا يتوقف عن الرسم والنحت والتلوين هو واحدٌ من أكثر الفنانين العرب إنتاجاً. آلاف الرسومات والتخطيطات. مئات اللوحات وأعمال الحفر والنحت تتوزع بين محترفه اللبناني اليوم وبيوت المقتنين في شتى أصقاع العالم. لكن وعند عتبة الثمانين تطفو على ساحة المشهد الفني المعاصر، لوحات بالعشرات شكلت قفزات أساسية في تاريخ ماضي. لم تعرض ولم يعلن عنها من قبل. بطلاتها، بمتسم أيضاً ويجيب بلكنته اللبنانية إيه هيدا إنا».